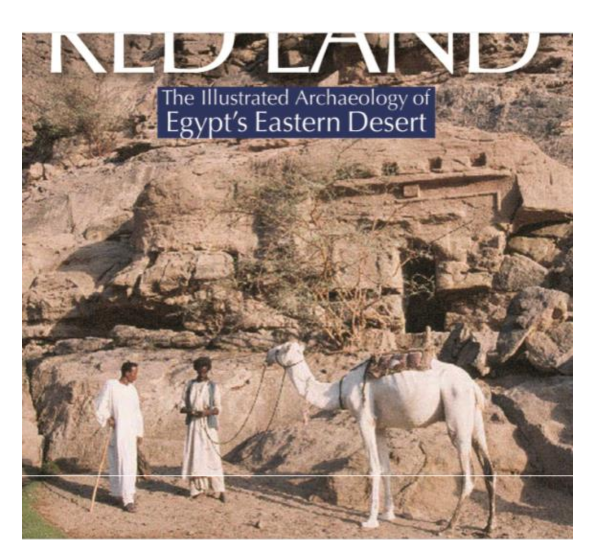
الأرض الحمراء

جغرافية الآثار في صحراء مصر الشرقية

تأليف

ستيفين سايدبوثام

مارتن هِنس   هيندرايكي نوينز



ترجمة:
عاطف معتمد
ريهام أبو دنيا   محمد رزق   عزت زيان

المحتويات

مقدمة الترجمة

يعد الكتاب الذي بين أيدينا مرجعا نادرا في تخصصه. ومن أسفٍ أن جهود الباحثين المصريين (من مؤرخين وأثريين وجغرافيين ولغويين) لم تجتمع في عمل واحد يخرج لنا منتجا باللغة العربية عن هذا الجزء الأصيل من أرض مصر: الصحراء الشرقية.

ولعل أسباب ذلك كثيرة، أهمها أن البحث العلمي في مصر ما زال يعمل في معزل عن بعضه البعض، لا تجمعه مشروعات وطنية تجبر الفجوة بين التخصصات المختلفة. ونأمل أن ننتبه على المستويين السياسي والأكاديمي أن الصحراء الشرقية هي "مستودع" الحضارة المصرية التي لولاها ما كان قد تحقق شيء عبر العصور الماضية.

فهي كنز للمعادن والخامات ومناجم الذهب والأحجار الكريمة التي جلب منها الملوك والحكام كل ثرواتهم التي أبهروا بها العالم في قصور ومعابد او استغلوها في الصناعة والتجارة والحرب.

وهي كنز بموقعها الاستراتيجي الذي ربط مصر بالعالم. فلولا سواحل البحر الأحمر المطلة على الصحراء الشرقية ما كان قد تحقق لمصر أي ارتباط ببلاد شبه الجزيرة العربية واليمن والصومال وإثيوبيا والهند بل وإندونيسيا وجزر جنوب شرق آسيا عبر العصور الأربعة: المصري القديم ، البطلمي، الروماني، العربي.

وهي مستودع بشري لا يضم فقط قبائل البشارية والعبابدة والمعازة بل تزداد كل يوم الاكتشافات العلمية التي تؤكد أن الصحراء الشرقية (بمعناها الأوسع بين نهر العطبرة في السودان جنوبا وحتى شبه جزيرة سيناء شمالا) كانت أحد المواطن الأولى التي هاجر منها الإنسان من مسقط رأسه في شرق إفريقيا.

لقد كشفت الأبحاث الحديثة (والتي لم يتعرض لها العمل الذي بين أيدينا) أن الصحراء الشرقية تضم عديدا من المواضع (كما في كهف صدمين قرب سفاجا وكهف بيلي قرب الغردقة) التي تحوي أدلة على وجود الإسان قبل أكثر من 110 ألف سنة. أي أنها كانت موطنا للجماعات البشرية التي استوطنت مصر قبل أن يهبط الإنسان إلى وادي النيل ويقيم فيها حضارتها الموسومة بـ "هبة النيل". علينا هنا أيضا أن نفكر في أن مصر من هذه الزاوية هي أيضا "هبة الصحراء الشرقية".

يعتمد الكتاب الحالي منهجا مترابطا يبدأ بعرض تاريخ مصر العام وموقع الصحراء الشرقية فيه فضلا عن ملامح الأرض التي نشأت عليها أحداث التاريخ. ورغم أن الكتاب مؤلف من خمسة عشر فصلا إلا أنها فصول قصيرة سلسة العرض يسلم كل منها بعضه البعض، ومدعمة بعدد وافر من الأشكال التوضيحية والصور الفوتوغرافية والخرائط الميدانية والمجمسات التخيلية لإعادة بناء الصور التاريخية عن المكان الحاضر.

وهذا الكتاب هو تبسيط وعرض ملخص لسنوات أمضاها المؤلفون (وخاصة الباحث الشهير ستيفين سايدبوثام) في دراسة موضوعات تفصيلية في الصحراء الشرقية على مدار فترة امتدت لأكثر من عشرين سنة.

يتمتع الباحثون الأجانب في مصر (سيما في البعثات الأثرية) بمميزات عمل لا تتاح حتى للباحثين المحليين !

فلديهم ترسانة من الأرشيف المنظم في جامعاتهم الأجنبية يعودون إليها قبل الشروع في النزول للصحراء. تلك الترسانة تقدم كل ما هو مطلوب في تخصصات التاريخ والجغرافيا فضلا عن – وهو الأهم – سجل بالخرائط مختلفة المقاييس لقطاعات الصحراء الشرقية.

يراجع هنا الباحثون الأجانب ما كتبه الرحالة الأجانب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ومطلع القرن العشرين بلغات فرنسية وألمانية وإنجليزية ويعيدون رسم المواقع التي مر عليها هؤلاء الرحالة.

كما تتمتع البعثات الأجنبية بتسهيلات مالية وتقنية لا نقول أنها غير متوفرة للباحثين المحليين بل نقول إنها غير منظمة في التوزيع، خاصة ما يحتاجه الباحثون المصريون من سيارات دفع رباعي وأجهزة رفع مساحي وغير ذلك.

لكن أهم ما يتمتع به الباحثون الأجانب ولابد من الالتفات إليه في مصر قبل فوات الأوان هو فريق العمل الذي يتألف من عدة تخصصات. فبدهي أن دراسة التاريخ والآثار في صحراء مصر الشرقية لا يمكن أن يحملها على عاتقه باحث فرد. إذ الأمر يحتاج إلى متخصصين في الجيولوجيا، والجيوفيزياء، والجغرافيا، والتاريخ، والآثار، واللغة المصرية القديمة، واللغة اليونانية القديمة، واللغة اللاتينية وغير ذلك من لغات حديثة. هنا يسهم كل في تخصصه قدر علمه وبحثه.

ولو استمع القائمون على مستقبل الصحراء الشرقية في مصر إلى تجربة تراكمت عندي خلال عقدين من الزمن من الاهتمام بالصحراء الشرقية بدأتها منذ 1997 في صحراء حلايب ومكتنفات جبل علبة لقلت لهم إننا نخسر كثيرا إن لم نسارع بتأسيس ما أسميه "المركز الوطني لبحوث ودراسات الصحراء الشرقية" الذي يفترض أن يضم عددا من العلماء والباحثين وطلاب الدراسات العليا ورسامي الخرائط والمصورين الفوتوغرافيين والرحالة وغيرهم، بحيث يسهم كل في تخصصه في تقديم دوره لإماطة اللثام عن كنوز الصحراء الشرقية الطبيعية والبشرية.

ما هو العائد من هذا المركز الوطني الذي يستوجب ميزانية مالية ضخمة؟ لا شك أن التنقيب عن الخامات سيما الذهب والأحجار الكريمة وغيرها أحد مجالات الاستثمار في الصحراء الشرقية، لكن الأكثر استدامة في نظري (فكل المعادن إلى فناء) هو الاستثمار السياحي والثقافي في المنطقة وهو مورد دائم غير قابل للنفاد.

في نهاية قراءة الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ ستكتشف أن الصحراء الشرقية يمكن أن تجذب ملايين السائحين كل عام لأن بها مواضع ومواطن لا نظير لها في أي مكان آخر في العالم.

ما الذي نحتاجه إذن؟ لابد قطعا من وضع هذه المواطن المتميزة أثريا وتاريخيا وجغرافيا على خريطة الترويج السياحي في العالم. لابد من تجهيز بنية أساسية أفضل من شبكة الطرق المهشمة التي تعبر الصحراء الشرقية حاليا.

هذه الطرق الحديثة بالمناسبة مدت فوق الطرق القديمة التي كانت هنا قبل ألفي عام أو أكثر. كل ما هو مطلوب في هذه الطرق صيانة دورية ورعاية دائمة وحماية من أخطار السيول والتشقق الناجم عن تباين الحرارة والبرودة في عمق الصحراء. تحتاج البنية الأساسية أيضا إلى خدمات فندقية بين وادي النيل والبحر الأحمر حتى نستطيع استقبال الملايين المتعطشة لتاريخ وفن وثقافة الصحراء.

بهذا المعنى ينطبق على أرض الصحراء الشرقية حقا معنى "الكنانة" ففيها كل مكنون مما يمكنه النهوض بمصر اقتصاديا في المستقبل.

سيكشتف القارئ في هذا الكتاب أن الصحراء الشرقية لم تكن يوما منعزلة عن مراكز الحضارة في وادي النيل. فقد كان شريان الاقتصاد للمراكز الحضارية

الكبرى في الوادى (أسوان – إدفو – الأقصر – قفط – قنا) مرتبطة بخطوط طرق عرضية إلى البحر الأحمر تخترق الصحراء الشرقية.

كما سيجد القارئ ان آلهة الصحراء الشرقية وثيقة الصلة بآلهة وادي النيل (خاصة المعبود الشهير "مِـن" رمز الخصوبة والتناسل وحامي الصحراء من هجمات الأعداء، وهو في نفس الوقت المعبود الأول في مدينة قفط في وادي النيل).

وسيجد القارئ في رحلته مع الكتاب أن في الصحراء الشرقية أدلة كثيرة على توالي وتعاقب الأديان بمعابدها وأضرحتها ومقاصيرها: من ديانات مصر القديمة وصولا إلى رحلات الحج إلى مكة في صحراء عيذاب.

وعلى خلاف ما نظنه اليوم من صعوبة اجتياز الصحراء الشرقية سوى بسيارات مجهزة، كانت تلك الصحراء منذ فجر التاريخ معبرا لحركة نقل البضائع والسلع والخامات عبر طرق صحراوية ابتكر الإنسان القديم فيها وسائل فعالة حققت له مرامه بنجاح.

يقدم المؤلفون في كل فصل أدلة على الفضل الذي أسداه بعض البدو في الصحراء الشرقية في إتمام عملهم. لم يكن الفضل فقط في المساعدة في قيادة السيارات أو تجهيز المخيمات أو الطعام والشراب أو حراسة العمل الأثري.

يعترف مؤلفو الكتاب بأن الفضل الأساس يعود للبدو في المعلومات التي حصلوا عليها في الصحراء الشرقية، سيما الإجابة على أسئلة مثل: أين تقع المواضع الأثرية؟ إلى أي فترة زمنية ينتمي هذا الطريق؟ كيف يمكن الوصول إلى أماكن مشابهة....ألخ

على هذا النحو كان بدو الصحراء بمثابة المصادر المعلوماتية الأساسية للمؤلفين في البيئة المحلية ، وفي هذا رسالة علمية وبحثية مهمة أيضا لفرق البحث الوطنية التي ننادي بتكوينها.

هذا الكتاب يثير شجون، ويخلق أفكارا، ويزرع في نفوس الغيورين على بلادهم همّـًا وحماسة للعمل، وهو كتاب يعد إضافة حقيقية للمكتبة العربية ليس فقط

للباحث الأكاديمي المتمرس الذي يعد بحثا أو يؤلف كتابا، بل هو أيضا كتاب ضروري للمثقف المصري والعربي الذي لابد أن يعرف بلاده حق المعرفة.

وغني عن البيان أن معرفة جغرافية البلاد وآثارها وتاريخها ومواطن قوتها ومكامن ثرواتها هي العناصر الأساس للأمن القومي والضامن الأول في تدعيم الوحدة الداخلية ومجابهة الأخطار الخارجية.

ولو لم ننتبه للتعليم والبحث العلمي ونوليه حقه سنكون كمن يمسك بالفروع ويترك الجذوع، تشغله الأوراق والبذور عن الأصول والجذور.

عاطف معتمد

القاهرة – فبراير 2018